شهادات فلسطينية في معرض الدار البيضاء

تقديم د. صــلاح بوســريف

الحضور الفلسطيني في المعرض الدولي للكتاب، هو تعبير رمزيّ، أراد المغرب من خلاله، التعبير عن العلاقات القوية التي كانت تجمع المغرب بفلسطين، وتجمع، بشكل خاص، بين الشَّعْبَيْن المغربي والفلسطيني. ففلسطين لم تكن بالنسبة للمغاربة، قضيةً فلسطينيةً تَخُصّ الفلسطينيين وَحْدَهُم، بل إنَّها كانت قضية مغربية، بامتياز، وربما، وهذا يعرفه الفلسطينيون أكثر من غيرهم، لم يكن ثمَّةَ من كانت القضية الفلسطينية حاضرةً في مدارسه، وفي جامعاته، وفي مواقفِ ونضالاتِ الأحزاب السياسية، يمينها ويسارها، وفي برامج الجمعيات والمؤسسات الثقافية والفنية، عنده بهذا المعنى، وبهذا الوعي، أكثر من حضورها في عقل وفكر ووجدان الإنسان المغربي، العام منه قبل الخاص.

ما يمكنه أن يكون مُثيراً، في هذا الحضور، الذي ترأسه الكاتب والروائي يحيى يخلف، وفي اللَّحظات التي فيها انْعَقَد الحوار، والنقاش، وأُتيحَتْ فيها الفرصة لنستمع للأصدقاء، من كُتَّاب، وشُعراء، وقصاصين، وفنانين، ومثقفين، ممن كانوا مَدْعُوِّين للمعرض الدولي للكِتاب، هو ذلك العُبور السَّلْس والسَّهْل، الذي جعل من المُصافَحَة تكون عِناقاً، بما يشي به هذا الفِعْل، من أخُوَّة مُتبادَلَة، ومن لِقاءاتٍ سَبَقَت اللِّقاء.

شخصياً، لي أصدقاء كُتَّاب، وشُعراء، ومثقفين، وفنانين، تعرَّفْتُ عليهم حتَّى قبل زيارتي لرام الله، منذ سنواتٍ سابقة، وزيارتي، هذه، أتاحتْ لي أن أتعرَّف على آخرين، ممن رَبَطَتْنِي بهم علاقة حوار شعري وثقافي، وعلاقة قراءة وإنصات، هذه العلاقة التي ازْدادتْ متانةً، لأنَّ كُلَّ واحدٍ من هؤلاء الأصدقاء، كان بالنسبة لي أُفُقاً للإبداع، وأفقاً للإنصات، واختبار المفهوم العميق للصداقة، حين تكون مبنيةً على الإبداع، وعلى الفكر والعقل والخيال، أعني على الابتكار، والاختلاق. فالصداقة اكتشاف دائم، وتبادُل، يَسْبِقُه الإخاء والسَّخاء.

في المغرب، حين التَقَيْتُ أصدقائي السابقين، غسان زقطان، وزهير أبوشايب، ويوسف عبد العزيز، ووليد الشيخ، شعرتُ بفرحٍ خاصٍّ، لأنَّني، دائماً، أعتبر لحظة اللِّقاء، هي من الفُرَص التي يختبر فيها الإنسان جسارة صداقته، وما فيها من وشائج قوية، لا يمكن أن تذوب في غَمْرَة الغياب، أو في حضرته، بتعبير الصديق الراحل الشاعر محمود درويش. لكن، لِقائي بأصدقاء كانوا عندي نصوصاً، قبل أن يتحوَّلُوا إلى شخوص، من مثل زياد خداش الذي لَمَسْتُ فيه ذلك الطفل الفلسطيني الذي لا تزعجه أصوات الطائرات وهي تُحلِّق في الريح، بل إنَّه يَسْتَدْرِج الرِّيح، لتَعْبَثَ بالطائراتِ. هذا القاص الذي يُشْعِل النص بين أصابعه، كمن يُضِيء ما لا تَسْتُرُه الشمس، أو تَحْجُبُه، لأنَّه أدْرَك ببداهة البُستاني، أنَّ الحدائق، لا تحتاج بالضرورة لمقصَّاتٍ لِتُشَذِّبَها، فعين الكاتب، هي مَنْ تَسْتَبْطِن الجمال النَّائم في اليومي، وما هو موجود في حياتنا، دون أن نكون وَصَلْنا إليه، أو كان ضمن ما نفكر فيه. وهذه إحدى زَلاَّتِ زياد في الحَكْي، وهي زَلاَّتُ القاص الذي يعرف كيف يمزج الشِّعْرِيَ باليومي، ويجمعهما في جِرابٍ واحد، هو جراب النص، بما فيه من دهشَة ومتعة وتجريب.

أتاحتْ لي القراءات الشِّعرية، بشكل خاص، أن أكتشف شاعرات وشُعراء، من الشبان، ومن غيرهم من الأجيال التي سبقتْهُم ممن لم أكن قرأْتُ لهم من قبل، بحكم الحصار الثقافي المضروب علينا جميعاً، كما أتاحتْ لي هذه القراءات، أن أستمتع بنصوصهم، وبقراءاتهم، وأيضاً بدواوينهم التي حَصَلْتُ عيها منهم. فأنا، بدافعٍ من هذه الدواوين، وما تحفل به من شعرية مُمَيَّزَة، ومن اختلاف في الرؤية وفي النَّظر، كتبْتُ عن هؤلاء، وعن خصوصيات تجاربهم، قياساً بما كوَّنَّاه من صورة نمطية عن الشِّعر الفلسطيني، الذي هو شعر فيه اليوم، تنوُّع مهم في الاختيارات والتَّجارب، وفي جرأة الكتابة، واختلاق صُوَرِها وإيقاعاتها.